

تفريغ الكلمة الصوتية

الموالاة والمعاداة

للشيخ:
عطية اللَّه الليبي

التحايا للإعلام الجهادي
قسم التفريغ
١٤٣٦ هـ ٢٠١٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ

الموالاة والمعاداة

للشيخ/ عطية الله الليبي (رحمه الله)

مُؤسَّسَة التَّحَايَا

قِسْمُ التَّفْرِيغِ وَالنَّشْرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

نريد أن نتحدث الآن في هذه الحلقة عن موضوع آخر مهم، وله تعلق بمسألة الكفر والإيمان والردة، وما تحدثنا عنه سابقًا من التوحيد وضده وهو موضوع (الموالاة والمعاداة) وقد يعبرون عنه بالولاء والبراء، هو تعبير عن شيء واحد.

معلوم أن الله –سبحانه وتعالى– خلقنا من أجل عبادته وحده لا شريك له وأوجدنا في دار الدنيا، دار العبادة؛ لكي نعبده، ابتلانا وامتحننا بهذه العبادة وما فيها من الامتحانات، هل ننجح في عبادته وطاعته ونسير على صراطه المستقيم أو لا ننجح –أسأل الله أن يجعلنا وإياكم من الناجحين–.

ومن رحمته –سبحانه وتعالى– ولطفه أنه أرسل لنا الرسل وأنزل لنا الكتب يُعرِّفوننا بالله –عز وجل– ويبينون لنا مراد الله كيف نعبده، أَمْرُ الله لنا بعبادته وحده لا شريك له، وكيف نعبده؟ تفاصيل العبادة الأوامر والنواهي والتكليفات، فبلَّغ الرسل –جزاهم الله عنا خير الجزاء– بلغوا الأمانة، وأدوا الرسالة –صلى الله عليهم وسلم أجمعين–.

وعندما أرسل الله –سبحانه وتعالى– الرسل افترق الناس واختلفوا كما قال الله –تعالى–: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ لما أنزل الله الرسل كما قال الله –تعالى– في الآية الأخرى هذه في سورة البقرة، والأخرى أيضًا قبلها في سورة البقرة قال: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ والمفسرون لهم قولان أمةً واحدة على الكفر، أم أمةً واحدة على التوحيد، والأصح هو المروي والذي ثبت عن ابن عباس في تفسيرها أن أمةً واحدة على التوحيد، كان الناس أمة واحدة من لدن آدم على التوحيد إلى أن وقع الكفر والشرك في قوم نوح كما حكاه الله –سبحانه وتعالى– وأشار إليه في القرآن، وقع الشرك وعبدوا الأصنام.

طريقة كيف عبدوا الأصنام معروفه، صوروا لصالحيهم صور وتماثيل بإيحاء الشيطان قال لهم هؤلاء الصالحون يجب أن تعظموهم وأوحى إليهم الشيطان أن عَظِّموهم وصوروا لهم الصور واجعلوا لهم التماثيل؛ حتى تتذكروهم فتتذكروا نصائحهم ومواعظهم وتتذكروا ما كانوا عليه من السيرة ونحو ذلك، فيزيدكم هذا صلاحًا، الشيطان دخل عليهم من هذا الباب فصوروا تلك الصور وصنعوا تلك التماثيل.

فالجيل الأول كان يعرف وربما الثاني والثالث ثم لما طال الأمد نُسي العلم كما قال ابن عباس، فعبدوهم من دون الله وهم الذين ذكرهم الله -سبحانه وتعالى- في سورة نوح في قوله: ﴿وَقالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُواعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ خمسة: وَد -أو وِد في القراءة الأخرى- ولا تذرن وِدًا ولا سواع ويغوث ويعوق ونسر، خمسة كانوا من الصالحين من قوم نوح، ثم صوروا لهم قومهم تماثيل وهكذا، ثم عُبِدوا بعد ذلك، عبدوا لما نُسي العلم فوقع الشرك والكفر.

هذا معنى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ثم وقع الشرك في الأمة، في البشرية، في الناس، ووقع الكفر.

فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، مبشرين بالثواب لم أطاع الله وبالخير، ومنذرين سخط الله وغضبه وعذابه لمن كفر وعصى وأشرك ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ العلم.. ﴾ الآية.

فالمقصود أن الناس لما بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين، الناس افترقوا كما قال الله -تعالى-: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أتباعهم بعد رسالاتهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فأفادت هذه الآية الكريمة من سورة البقرة أن الناس اختلفوا بين مؤمن وكافر بعد بعثة الرسل، الذين اتبعوا الرسل وصدقوهم وآمنوا بهم واتبعوهم وأطاعوا الله -عز وجل- هؤلاء هم المؤمنون الذين عبدوا الله وحده لا شريك له.

والذين صدوا عن دعوة الرسل وكفروا بها واستهزؤوا بها ورفضوها وأبَوْها ولم يتبعوها، واتبعوا أهواءهم، هؤلاء هم الكفار لم يعبدوا الله -عز وجل- أو عبدوا الله وعبدوا معه غيره ولكنهم لم يعبدوه؛ لأن العبادة المعتبرة عند الله -عز وجل- هي عبادته وحده لا شريك له وما سواها لو شخص عبَد الله وعبد غيره كأنه لم يعبد الله، هو في الحقيقة لم يعبد الله؛ لأن عبادته الجزء الذي صرفه لله غير معتبر شرعًا، غير معتبر عند الله، إنما المعتبر هو التوحيد، هو عبادة الله وحده لا شريك له.

فانقسم الناس إلى مؤمن وإلى كافر، ثم حصل الاقتتال بينهم قال الله -تعالى-: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فأفادت الآية أن اقتتال المؤمنين والكافرين مراد لله -عز وجل-، مقصود يريده الله، وهذا بينته آيات

أخرى كثيرة، بينت الآيات أن الله فتن الخلق بعضهم ببعض، وسلط بعضهم على بعض اختبارًا لهم للطرفين لهذا ولهذا، اختبارًا وامتحانًا وفتنةً لهم ولمقاصد أخرى منها أن يختار الله –عز وجل– أولياءه وأصفياءه وأحبابه ويختار الشهداء ويختار الذين يختارونه ويفضلونه ويوالونه ويحبونه ويقدمون محابه على كل شيء، يختارهم الله –سبحانه وتعالى– ويرفع درجاتهم فهذا مقصود لله –سبحانه وتعالى–.

قال الله –تعالى–: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ سورة الأنعام.

قال الله –تعالى– في سورة الفرقان: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ فالله –سبحانه وتعالى– سلط الناس بعضهم على بعض وفتن بعضهم ببعض.

عنده مقصود الله –عز وجل– يريد هذا، مقصود وإرادة من الله، إرادة إلهية ربانية سامية، عظيمة شريفة، مطهرة مقدسة، الله –سبحانه وتعالى– يريد هذا الشيء، ومن أجله بعث الرسل ومن أجله كلفنا بهذه التكليفات؛ حتى الله –سبحانه وتعالى– يختار أولياءه وحتى تحصل المقاصد التي أشرنا إلى بعضها.

قال الله –تعالى– في سورة محمد ﷺ، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ* وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ* ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ {كذلك} نحو هذا، ونحو ذلك البيان يبين الله صفات المؤمنين ومَثلهم، وصفات الكافرين ومَثلهم ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ ثم قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أمر بضرب رقابهم وقتالهم وجهادهم.

{فضرب الرقاب} أمر بصيغة المصدر النائب عن فعله ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أكثرتم فيهم القتل والجراح ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ أسرًا ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ هذا محل الشاهد، والمقدمة الأولى قبلها مهمة، لكن محل الشاهد هذا هو ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ بعضكم أنتم الخلق، بعضكم المؤمن ببعضكم الكافر.

لو شاء الله لانتصر من الكافرين، الله يستطيع ويقدر وهو على كل شيء قدير -سبحانه وتعالى-، يستطيع أن يفنيهم ﴿كن فيكون﴾ ولكن إنما جعلهم موجودين وابتلانا بهم وسلطنا عليهم كما سلطهم هم علينا، ابتلاءً منه -سبحانه وتعالى- لنا نحن ولهم هم الكفار ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

فهذه الآيات فيها بيان لهذا المعنى الذي ذكرناه وتكلمنا عليه، ليت الإخوة يتدبرونه في كتب التفسير حتى يفهموه جيدًا.

نستطيع أن نسجل بعض النقاط حتى الإخوة يرتبون المعلومات ببعثة الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- انقسم الخلق إلى فريقين: مؤمنين وكفار، وسلط الله بعضهم على بعض، نستطيع نقول: ابتلى الله بعضهم ببعض ابتلاءً من الله للفريقين ولحكم عديدة مُرادةٍ لله -تعالى- ولله الحجة البالغة والحكمة التامة.

مزيد ابتلاء، مزيد اختبار وامتحان، ومزيد فرصة يعطيهم الله -سبحانه وتعالى-؛ لعل بعضهم يرجع وينتبه قبل أن يدركه الموت وقبل أن يأتيه اليقين، هذا ابتلاء لهم، الآن هؤلاء الأمريكان مسلطون علينا، هذا ابتلاء لهم هم، الله -سبحانه وتعالى- يبتليهم، هذا معنى الابتلاء، يختبرهم، مزيد اختبار ومزيد امتحان ومزيد فتنة.

ولطف أيضًا منه أنه يعطيهم مزيد فرصة؛ لعلهم يتدبرون لعلهم يتفكرون لعلهم يرجعون.

ثم الله -سبحانه وتعالى-، هم أنفسهم يقيموا عليهم الحجة، ويُعذر إليهم كل الإعذار وتظهر آثار أسمائه الحسنى -سبحانه وتعالى- وصفاته العليا في أنه -سبحانه وتعالى- صبّارٌ صبور حليمٌ، واسم الحليم لله -سبحانه وتعالى- فلم يعاجلهم بالعقوبة، ولكن أعطاهم الفرصة تلو الفرصة.

فهو ابتلاء للجميع فوقع الصراع بين الحق والباطل، بين الكفر والإيمان، الصراع: الحرب والقتال بين الحق والباطل؛ لأن هذين الفريقين -المؤمنين والكفار- لا يمكن أن يصطلحا أو لا يمكن أن يتحابا أو يتواليا، لا يمكن.

لا بد أن يكونا عدوين بعضهم لبعض عدو، لا يمكن أن يكون الفريقين أحبابًا، متحابين، متعايشين، متصالحين طول الوقت!

الصلح المؤقت، ما أردتُ أن أعبر بالصلح، الصلح المؤقت قد يكون وجاءت به الشريعة، لكن الصلح المستديم الدائم على طول متصالحين متعايشين متحابين متواليين متوادين لا يمكن! لا يمكن أصلًا بمقتضى هذا الانقسام وبمقتضى هذا الإيمان وهذا الكفر، لا يمكن! والله يريد ذلك ويأمر به.

ولا بد أن يكونا عدوين متصارعين متحاربين؛ هذا مطلوب لله -سبحانه وتعالى- مراد لله -عز وجل- مقصود لله -عز وجل-، يحبه الله أن نكون نحن معادين له، لكن لا يحب أنهم يعادوننا طبعًا، بل هذا مكروه لله مبغوض لله لكنه واقع بقدر الله فهنا اختلف الكون، الوجود الكوني أو الإرادة الكونية مع الإرادة الشرعية، لكن في حقنا نحن كوننا نكرههم ونعاديهم ونحاربهم، هذا يريده الله ويحبه الله يريده إرادة كونية، وأوجده، ويريده إرادة شرعية التي مبناها على المحبة وأمر به.

ولأن فيه مصالح كبيرة، وهذا هو شرط صلاح الأرض، المقصود بالأرض هي الأرض ومن عليها من البشر قال الله -تعالى- ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ بينت هذه الآية أن من الحكمة -حكمة الله عز وجل- ومما يريده الله -سبحانه وتعالى- أن يحصل التدافع الذي به صلاح الأرض؛ لأنه لولا أن المؤمنين يدفع الله -عز وجل- بهم الكافرين وكفرهم وطغيانهم وظلمهم؛ لفسدت الأرض ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ لولا حصول هذا الصراع ويندفع كثير من الشر بالخير، وبالجهاد وبالقتال، وبهذه الحرب وبهذا الصراع والتدافع لفسدت الأرض.

كيف تفسد الأرض؟ بسيطرة الكفار، وأعظم فساد هو سيطرة الكفار على الأرض إذا سيطر الكافر على الأرض وتحكم فيها -نعوذ بالله- خلاص وقع الفساد العظيم، الكفر والشرك والفسق والفجور ومعاصي الله -سبحانه وتعالى-، وسيطرة الشياطين، ودعوة الشيطان، ومحاب الشيطان وأهواء النفوس، سيطرة الكفار على الأرض هو أعظم فساد ما في فساد أكبر من هذا.

يتبين لنا من هذا أن ولاء المؤمنين لله -عز وجل- ودينه ولرسله، والمؤمنين بعضهم لبعض، أن هذا الولاء مطلوب لله، مقصود لله، مراد لله، الله يأمرنا به وأنه لا بد منه بمقتضى الإيمان والكفر، بمقتضى أننا عبيد لله.

فالعبادة لله وحده لا شريك له، التوحيد، الإيمان، الإسلام لله -عز وجل- يقتضي ويستلزم بذاته استلزامًا واقتضاء قريبًا جدًا بينًا -يُسمُّوا فيه اللزوم البيِّن هذا حتى في المنطق، اللزوم القريب أو اللزوم البين- يقتضي أن يوالي المؤمنون الله -

عز وجل- ورسوله ودينه والمؤمنين، وأن يبرؤوا ويعادوا الكفر والكفار وكل ما يتعلق بهم، يعني وما ينتج عن الكفر من المعاصي والفجور والعصيان والتمرد على الله -سبحانه وتعالى- والشيطان وحزبه، ومن قاربهم وكان منهم، فهما فريقان.

يعني العبودية لله -عز وجل-، الإسلام لله -عز وجل-، التوحيد، الإيمان يقتضي هذا، يقتضيه ويستلزمه استلزامًا بيّنًا قريبًا أنه لا بد أن يكون المؤمنون أولياء لله -عز وجل- ولرسوله ودينه وللمؤمنين، وأن يكونوا بُرآؤ، يبرؤون يتباعدون ويتجافون، ويعادون ويبغضون الكفّار والكفر والشيطان وحزبه وكل ما تعلق به.

نستطيع نلخصها نقول: الإسلام والإيمان والتوحيد وهو العبودية لله وحده لا شريك له هذا كله يقتضي ويستلزم من المؤمنين أن يوالوا الله ورسله ودينه والمؤمنين وأولياءه المؤمنين، وأن يعادوا وأن يبرؤوا ويعادوا أعداء الله اللي هم الكفار وكفرهم.

فمن هنا نستطيع أن نقول أن الولاء والبراء والموالاة والمعاداة هذه هي مقتضى عبادة الله -سبحانه وتعالى-، مقتضى التوحيد، ومقتضى الإسلام، ومقتضى الإيمان، يقتضيه لازمٌ له مية في المية، لا يمكن أن ينفك عنه، فغير ممكن أن يكون الإنسان مسلم مؤمن موحد يعبد الله وحده لا شريك له ويحب الله ويطيعه وفي نفس الوقت يحب الشيطان ويحب الكفر والكفار أو يواليهم ويقاربهم ويعيش معهم حياة مريحة مطمئنة ليس عنده مشكلة معهم!! لا يمكن هذا، هذا غير مُتصوَّر؛ لأن أصلًا العبودية مبناها على المحبة، قال العلماء العبودية مبناها على المحبة والذل، فلا يكون العابد عابدًا لله -عز وجل- إلا بمجموع المحبة الكاملة لله -سبحانه وتعالى- وأن يذل له، الذلة هي التي مقتضاها الخضوع والخشوع والانقياد لأمر الله -سبحانه وتعالى- والطاعة له، العبودية أصلًا مبناها على المحبة والذل، فلا يكون العبد عبدًا إلا بهذا، ولا يمكن أن يحب الله وأن يحب أعداءه هذا غير ممكن.

حتى في المحاب العادية بين الناس، لا يمكن أن تحب شخص وتحب عدوه! هذا لا يمكن، غير مقبول أصلًا، معناه أن محبة عدو الذي هو عدوه يعني مناقض له مضاد له من كل وجه.

ولا شك أن عبوديتنا لله -سبحانه وتعالى- تقتضي منا أن نحب الله -عز وجل- ونحب رسله ودينه وأولياءه ومن يكون في صفه.

وأن نكره ونبغض، ونعادي كل من يعاديه، لو لم يقل لنا الله هذا، لو لم يوجبه علينا، لكان هذا واجب بمقتضى الإسلام والإيمان والتوحيد والعبودية، فكيف وقد جاءت الشريعة بالأمر بموالاة الله ورسوله وأوليائه، والنهي عن موالاة ومقاربة الكفار والكون معهم كما سنذكره –إن شاء الله–.

ومع هذا زادنا الله –سبحانه وتعالى– بيانًا وتوضيحًا، رحمةً منه ولطفًا –سبحانه وتعالى– والله رفيق يحب الرفق والله ودود كريم ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ وتخفيف من الله وتسهيل علينا زادنا بيانًا وتوضيحًا، وبيّن لنا في آياته القرآنية وبيّن لنا رسوله ﷺ في أحاديث النبوية الشريفة أنه يجب علينا أن نوالي المؤمنين، نوالي الله –عز وجل– ورسوله ودينه ونكون مع المؤمنين أولياء نحبهم، ونكون معهم وفي صفهم، ونقاربهم ونعاشرهم ونكون مع المؤمنين.

نكون مع المؤمنين بعضنا أولياء بعض، وأن نبغض الكافرين وأن نتبرأ منهم، وأن نجتنبهم وأن نباعدهم ولا نساكنهم ولا نجتمع معهم في سكن، وفي بلد، (ولا تراءى ناراهما) قال النبي ﷺ، ابعدوا عنهم حتى نارهم لا تراها من بعيد ولا يرون نارك، باعدهم وتجافى عنهم واجتنبهم ولا تكون معهم في أرض ولا تقيم بينهم ولا تخالطهم ولا ولا ولا...

كل هذا مباعدة للكفار، ومجانبة للكفار، وبراءة من الكفار وتبرؤًا منهم، ومعاداة لهم وبغض لهم، وبغّضنا الله فيهم وقال أبغضوهم كيف تحبونهم هؤلاء؟! تبغضونهم لأنهم أعداء الله كفروا بالله وكفروا برسل الله وعصوا الله وتمردوا على طاعة الله –عز وجل– هؤلاء أعداؤكم.

بين لنا هذا في القرآن وفي السنة بيانًا عظيمًا، أنه لا بد لنا أن نوالي المؤمنين، ونوالي بعضنا بعض، ولا بد لنا أن نتبرأ من الكفار، وأن نعاديهم وأن نبغضهم وأن نقاتلهم ونجاهدهم ونحاربهم في ذات الله –عز وجل–.

هذا في القرآن مُبين بيان عظيم جدًا جدًا من أحسن ما يكون البيان، وممكن نتلوا –إن شاء الله– الآن بعض الآيات في هذا لكن المقام يطول بذكرها وشرحها وتفسيرها، فنكتفي ربما ببعض الأمثلة.

الله –عز وجل– أيضًا بغّضنا فيهم وبين لنا أنه يجب علينا أن نبغضهم في آيات كثيرة جدًا؛ لأنهم كفروا بالله وتمردوا على طاعة الله –سبحانه وتعالى– فهذا مبين في القرآن أحسن تبيين.

آيات كثيرة فيها التبغيض للكفار ﴿هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ هذي كلها تبغيض في الكفار ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ...﴾ وغيرها.

ففي القرآن آيات كثيرة تأمر بموالاة المؤمنين وينهانا الله -سبحانه وتعالى- فيها عن موالاة الكافرين واتخاذهم أولياء قال الله -تعالى- في سورة الممتحنة التي هي معظمها وجزء كبير منها في هذا الباب قال الله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ* إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً...﴾ فكيف تحبونهم! هذا المعنى تحريض على بغضهم ومعاداتهم ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ يجدوكم في أي مكان ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ هم يحبون كفركم ويودون أنكم تكفروا بالله.

ثم ضرب لنا مثلًا بإبراهيم قال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ...﴾ صرح بذكر العداوة والبغضاء ﴿وَبَدَا﴾ ظهر ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ...﴾ إلا أن تؤمنوا بالله وحده فقط، فتزول العداوة والبغضاء، أما قبل ذلك لا ﴿أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ...﴾

فهذه واضحة جدًا، تمام الوضوح فالقرآن ملآن بهذا وفي سورة آل عمران وفي سورة المائدة وفي سورة الأنعام والبقرة، وفي كثير من سور القرآن هذا موضح جدًا، ومبين أحسن بيان.

إذن، نلخص هذا الكلام حتى الإخوة يكتبوه:

ومع ذلك -يعني مع أن العبودية والإسلام والإيمان والتوحيد تقتضي هذا كما ذكرنا، تقتضي موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين وبغضهم- ومع ذلك فقد بين الله -عز وجل- لنا في كتابه وفي سنة نبيه ﷺ بأوضح بيان وأصرحه، وجوب موالاة والنهي عن موالاة الكافرين

هذه ذكرناها ولكن أحببت أن ألخصه لكم في عبارة.

ونحن نذكر الآن -إن شاء الله- بعض الآيات التي جاءت في القرآن، أهم الآيات التي فيها التشديد في موالاة الكافرين، تشديد في النهي، والتشديد في حكم من يوالي الكافرين، نذكر أهم الآيات.

نحن قبلها ذكرنا آيات سورة الممتحنة، ذكرناها ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ...﴾ وهذي مثل هذه الآيات كثير في القرآن.

الآن سأذكر أهم ثلاث آيات في سور مختلفة، واحدة في سورة آل عمران، اثنتين في سورة المائدة، هذه أهم ثلاث آيات في حكم موالاة الكافرين.

نحن قلنا القرآن نهى عن موالاة الكافرين وأمر بموالاة المؤمنين، وشدد في موالاة الكافرين أنها إثم ومعصية، بل صرح في بعض الآيات بأنها أشد من ذلك كما سنراه في هذه الآيات، فقال الله -تعالى- في سورة آل عمران ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾

والآية الأخرى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾

هذه الآية في سورة آل عمران الله -سبحانه وتعالى- يقول: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا صورته صورة الخبر، ولكن المراد به الإنشاء، المراد به الأمر، وهو نهي ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ "لا" نافية، لكن هو نهيٌ مباشرةً، فـ"لا" هنا ناهية.

﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أيها المؤمنون، لا تتخذوا، هذا معناها ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا نهي للمؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، هذه تكميل وتوضيح، إنما تتخذ المؤمنين أولياء فقط، ولا تتخذوا الكافرين أولياء.

بعد ذلك قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ والذي يفعل ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ هذا التعبير ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ في اللغة العربية يستعمل للبراءة من الشيء، أو البراءة من الشخص، فيقول -مثلًا-: من فعل كذا فليس مني، فلست منه، فليس منا، فليس مني في شيء.

وجاء وورد مثله ونظائره في كلام النبي ﷺ في مواضع، كقوله: (من غشنا فليس منا) أنا بريء من كذا.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ يعني فإن الله بريء منه، ليس من الله في شيء ولا يقرب الله، ولا يكون منتميًا إلى الله هذا معناه، ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ استثناء بعد ذلك قال: ﴿إِلَّا﴾ حال المستثناة إلا حال التقية، إلا أن تكونوا مضطهدين مغلوبين منهم فتتقوا منهم تقاة فتظهروا لهم -في الظاهر- أنكم لا تعادونهم، إرادة أن تتقوهم هذا حالة الإكراه وحالة التقية مستثناة فقط، أما غيره لا، هذا هو الحكم الأصلي، النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء، ثم هنا الآية فيها صراحة أكثر من غيرها في كثير من الآيات أن من يفعل ذلك ويتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فقد برئ الله منه ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾.

ما معنى هذه البراءة هل هي الكفر؟ ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ معناها أنه خرج من دين الله أصلًا، معناها كفر أو معناها الفسوق والعصيان، محتمل الله أعلم بمراده، ولكنها هذي من أقوى الآيات المحتملة على كفر الموالي للكافرين، وسنزيد هذا المعنى إيضاحًا -إن شاء الله-، هذي الآية الأولى في سورة آل عمران التي بين الله -سبحانه وتعالى- فيها أنه بريء ممن يوالي الكافرين.

الآية الثانية في سورة المائدة قال الله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ في هذه الآية يخاطب الله الذين آمنوا المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يناديهم ويخاطبهم اسمعوا هذا الكلام ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ نهي، "لا" هذه ناهية ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ أنهاكم أن تتخذوهم أولياء، لا تفعلوا، هذي جملة تشبه الجملة المعترضة كأنه اعتراض، والجملة المعترضة يراد بها بيان معنى قبل تمام الغرض المساق له الكلام.

فقال: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ والحال، الشأن أنهم هم اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض، هم يوالون بعضهم فأنتم لا تتخذوهم أولياء ثم قال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ ومن يفعل هذا الذي نهيناه عنه ويتخذهم أولياء ويتولهم منكم أنتم أيها المؤمنون المخاطبون ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ من يفعل ذلك منكم فقال جزاؤه "مَن" هذه شرطية وهذا هو جواب الشرط وجزاؤه ﴿فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ هذه أصرح آية في كفر الذي يوالي الكفار -اليهود والنصارى هنا- وسائر الكفار مثلهم.

أصرح آية، صرح الله -سبحانه وتعالى- بها بأن الذي يوالي اليهود والنصارى أنه منهم، يعني مثلهم ومنهم ومحسوب منهم وكافر مثلهم، ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا تذليل فيه وعيد وفيه تهديد، يعني أنكم إذْ

ظلمتم وكنتم ظالمين فاعلموا أن الله لا يهديكم فإن الله لا يهدي القوم الظالمين، فهذي فيها تهديد شديد ووعيد بعد هذا النهي وبعد بيان الحكم.

﴿فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ صرح بعض العلماء بأنه منهم يعني: كافر مثلهم، وعلماء آخرين قالوا: فإنه منهم في الإثم.

لكن الأصرح والأوضح والذي يُفهم والمتبادر والذي هو ألْيَق بمعنى الكلام العربي أنه منهم يعني في الكفر، أنه منهم كافر مثلهم والله أعلم، هذا أرجح.

الآية الثالثة أيضًا في سورة المائدة والآية الأخرى بعدها في سورة المائدة كذلك بعدها بقليل في الترتيب وهي قوله -تعالى-: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ...﴾ قبلها، قبل هذه الآية نتلوا الآيات التي قبلها طويلة، كلها في الموالاة قال الله -تعالى-: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ* كَانُوا...﴾ يعني اليهود ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ لا ينهى بعضهم بعض عن المنكر ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ* تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ اليهود، الله -سبحانه وتعالى- يذمهم وينعى عليهم أنهم كانوا يوالون الكافرين ولا يتبرؤون منهم.

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ* وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

هو جزء من آية وهذا موضعها في سياقها في آيات هذه السورة الكريمة، فيقول الله -سبحانه وتعالى- في هذه الآية عن الذين يتخذون الكافرين أولياء من اليهود الكلام كله في سياق الآيات، الكلام كله عن اليهود.

الله -سبحانه وتعالى- يتحدث ويتكلم عن اليهود وينعى عليهم ويذمهم بأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، وأن كثير منهم كانوا يتولون الذين كفروا، ثم قال: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ...﴾ لو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوا الكافرين أولياء، معناها أنهم لم يؤمنوا بالله ورسوله والنبي وما أنزل إليه لأن "لو" هذه حرف شرطٍ، في النحو يقولون "لو" حرف شرط يفيد امتناع لأجل امتناع، فامتنع إيمانهم بالله والنبي وما أنزل إليه، هنا لا بد من التأويل طبعًا؛ لأن هذا منفي فيكون التقدير ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه، فامتنع إيمانهم لامتناع عدم اتخاذهم أولياء، لأن هذا منفي، فلا بد أن يُؤوَّل بالعدم ويُؤوَّل بالنفي.

فامتنع إيمانهم بالله والنبي وما أنزل إليه لامتناع ولعدم هذا الشيء وهو عدم اتخاذهم الكفار أولياء.

لا بد من تأويل فيها؛ لأن هذا في موضع النفي وإلا "لو" هي هكذا في أصل العربية "لو" حرف امتناع لامتناع، تقول: لو جئتني أكرمتك، فامتنع إكرامي لامتناع مجيئك، لكن لوجود حرف النفي هذا فلا بد أن تُؤوَّل جملته.

المهم المقصود أن المعنى أنهم لو كانوا يؤمنون بالله والنبي ما كانوا يتخذون الكافرين أولياء، فدل على أنهم لما اتخذوا الكافرين أولياء ما كانوا مؤمنين.

"لو" هذي يسمونها حرف امتناع لامتناع، يمتنع جوابها لامتناع شرطها.

فهنا أحد الجزئين منفي ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ﴾ فلا بد من تقديره بالنفي أو العدم فيكون التقدير: امتنع إيمانهم بالله والنبي وما أنزل إليه لامتناع عدم اتخاذهم أنبياء.

امتناع العدم هو نفي النفي، فهو إثبات، وهو اتخاذهم الكفار أولياء.

فهذه أصرح وأوضح ثلاث آيات في القرآن في حكم الذي يوالي الكفار أن الله بريء منه وأنه لا يؤمن وأنه منهم.

ولهذا العلماء استنبطوا من هذه الآيات ومن آيات القرآن عمومًا أن الموالاة درجات، أعلاها الكفر وتحتها درجات في الفسوق والعصيان، درجات لا يعلمها إلا الله -عز وجل-.

لأن الله -سبحانه وتعالى- صرح في موضع أنه بريء من الذي يوالي الكفار، وصرح في موضع أن الذي يوالي الكفار أنه منهم.

وصرح في موضع أنه لا يؤمن، فأخذوا من هذا أن موالاة الكفار فيها درجة تكون بهذه المنزلة تكون كفرًا، وهذه الدرجة لا ينبغي أن تكون إلا أعلى الدرجات ولهذا قالوا أن أعلى درجات الموالاة للكفار كفر وهي الدرجة العالية الواضحة جدًا وهي التي سنتكلم عنها الآن، أما الدرجات التي تحت تلك الدرجة فتكون معصية، ويختلف بعضها معصية كبيرة وبعضها معصية صغيرة.

ما هي أعلى مرتبة ودرجة يمكن أن نتصورها من مراتب موالاة الكفار، من يقول لنا الجواب؟

قالوا العلماء: أعلى درجة من درجات موالاة الكفار (أن المسلم يواليهم) هي أن يقاتل معهم المسلمين، وسموا هذه الدرجة "المظاهرة" مظاهرة الكفار على المسلمين في الحرب وفي القتال وفي الصراع.

يعني عندما تكون هناك حرب وقتال وصراع وعراك يكون هو في صف الكفار يعاونهم ويساعدهم ويقاتل معهم المسلمين، هذه أعلى الدرجات، هذه الدرجة كفر.

الذي يكون مع الكفار في صفهم وفي جانبهم وفي حدهم وفي ناحيتهم ومعهم على المسلمين، يحارب المسلمين معهم ويعاونهم ويمدهم ويظاهرهم هذه أعلى الدرجات وأوضحها، أوضح درجات الموالاة هذي التي ينطبق عليها أن الله بريء منهم، وأنه منهم وأنه لا يؤمن، هذا غير مؤمن أبدًا، هذا ناقض من نواقض الإسلام –والعياذ بالله، نسأل الله العفو والعافية–.

ودون ذلك مراتب بعضها قد يكون يحتمل الكفر لكن هذا الذي نجزم أنه كفر.

والله أعلم، والحمد لله رب العالمين أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.